إسرائيل.. المرض الحقيقي

منذ قرون عديدة ومنطقة الشرق الأوسط لا تبرح تعاني من تدهور مستمر، وتحدق بها الحروب والاضطرابات وأحداث العنف، وتنــزل بها صنوف البلايا والشدائد الأليمة. وقد زادت هذه الأمور ولا تزال تزداد في العقود الأربعــة الأخــيرة من هذا القرن. ولعله لا يتعذر معرفة العلة وراء ذلك، ولكن لا الشرق ولا الغرب يبدون اهــتماما لتحري الأسباب. والواقع أن السلام في هذه المنطقة قد اختل في الأربعين سنة الماضية مرات عديدة، وفي كل مرة تعرض سلام العالم كله للاضطراب. ولكن كان رد فعل الغرب على ذلك أنهم في كل مرة صعَّدوا هذه الأخطار بدلا من إزالتها. وبعد كل تجربة من هذه التجارب كانت ردود فعل المسلمين الذين يعيشون في هــذه المــنطقة هــي نفس ردود الفعل التي تعود عليهم بالضرر، وتزيد من معاناتهم مرة بعد أخرى. إنهم بعد مرورهم في تجارب متكررة يصلون إلى نفس النتائج التي ثبت خطأها. وهذا ليس من سمات أهل العقل والذكاء بأي حال. ولكن وجود رجال أذكياء في الجانبين أمر لا مراء فيه، فلا بد إذن من سبب آخر.. لأنه بدلا من أن يحل الموقف فإنه يزداد سوءا.

أساس الاضطرابات

الحق أن أساس كل هذه الاضطرابات هو إسرائيل. ومع أن الغرب كان بعد كل حرب يقدم تحليلا للموقف، ويخــبر بالأخطــاء التي وقع فيها أهل الشرق الأوسط وقادتهم، والتي تسببت في كل تلك الأضرار.. لكنهم لم يستبينوا جذور المرض أبدا، و لم يلقوا بالا نحو تصحيح موقفهم.

ومثالا لذلك فإنهم كانوا يلومون الرئيس المصري عبد الناصر، ويتهمونه بالجنون، وفقدان الاتزان، وأنه لم يكن يــدرك خطورة القوى العظمى ضده، وأنه وحلفاءه العرب جميعا لا يساوون شيئا إزاء تلك القوى العظمى.. وأنه في كل مرة يذهب إلى الحرب ليبوء بالهزيمة، ويزداد موقفه سوءا. فطبقًا لتحليل الغرب: يقوم قائد مجنون، ويستولي على قلوب شعبه بفضل حماسه، ولكنه محروم من الذكاء، فلا يفعل لهم شيئا مفيدا. ونتيجة لذلك فإن تصرفاته حيال أعدائه تنقلب عليه وعلى أصدقائه. وفي كل مرة يحارب فيها الآخرين لا يحقق أهدافه، بل يؤوب دائما بالخسران.

وكــان الحال كذلك أيضا مع من تبعه من القادة. وهم يقدمون نفس التفسير بشأن الرئيس صدام حسين، ويوجهون الأنظار إليه قائلين: هاكم قائدا مجنونا آخر قد قام، ترتكز جذوره على الناصرية، بل والنازية الهتلرية. وهــم يعرضون في التلفزيون هذه الأيام أفلام هتلر، وأحداث الحرب العالمية، يسترجعون بها ذكرى أيام هتلر، ليــثيروا الغــرب دونمــا حاجــة للتعليق، وليربطوا بطريقة لا شعورية بين صدام حسين ودوافعه وبين النازية ودوافعها.

شخِّصوا المرض أولاً

هذا هو التحليل الغربي. ولكننا لم نسمع من أي خبير غربي يبين لنا: إذا كان هؤلاء القادة مرضى حقا، فما هـــو المـــرض الذي أوجد هذه العقولَ المريضة؟ و لم يفكروا أنه حتى لو قطعت تلك الرؤوس المريضة فسيبقى المرض، ليتولد منه مزيد من الرؤوس التي لن تكون أبدا خالية من المرض وتأثيراته.

مـــا هوهذا المرض؟ إنه إنشاء دولة إسرائيل في هذه المنطقة، ثم استمرار التمييز في تعامل الغرب مع إسرائيل. فما كان هناك موقف يثير مسألة رعاية مصلحة إسرائيل في مقابل مصلحة العرب المسلمين.. إلا وكان الغرب دائمـــا وأبدا، ودونما حالة استثنائية واحدة، يهرَع إلى تفضيل مصلحة إسرائيل، وتضحية بمصالح العالم العربي المسلم. ولقد عبر أحد الشعراء عن جوهر هذا الموقف بما معناه:

من كان يلبس كلبه وشيًا ويقلع لي جلدي * فالكلب خير عنده مني، وخيرٌ منه عندي

هـــذا هـــو التشخيص الدقيق النهائي للمرض، وهذا هو ما غُرس في قلوب العرب. وتحليلهم هذا يقوم على حقائق واقعة. فالعالم الغربي لا شك يكسو كلابه، ويتركهم عراة. هذا هو الحال الذي يطابق تماما ما يجري مع إسرائيل مقارنة بالعرب. هكذا كانت دائما استجابة الغرب في كل مناسبة ليتخلصوا من العالم العربي الجاهل في نظـــرهم، ويحموا العالم من أذاه، وسبيلهم الوحيد لذلك هو تفكيك العرب وتفتيتهم إلى قطع صغيرة، وتدمير كل إمكانيات نهضتهم في المستقبل.

هـــذا هو التحليل الغربي، وإن كان ليس بالفظاعة والإجرام مثلما حدث بعد الحرب العالمية الأولى، ثم تكرر بعـــد الحرب الثانية، وتحليلهم في الحالَينِ كان خاطئًا. فما داموا لا يلقون نظرهم على الأسباب الأساسية التي ولـــدت الـــنازية أو الناصرية أو الصدامية، ولا يشخصون المرض تشخيصا صحيحا، ولا يتنبهون إلى علاجه الصـــحيح.. فإن تلك الرؤوس ستقوم مرات ومرات لتقطع مرات ومرات، وستبقى سببًا مستمرا لقطع رؤوس أخرى، ولا بد أن يكبر هذا الورم السرطاني، إلى أن يأتي وقت يفلت فيه من سيطرة حكومات الغرب القوية.

الخومينية انعكاس لمظالم الغرب

إن السلطة التي أُعطيت لصدام حسين هي في الحقيقة انعكاس لمظالم الغرب و لموقفهم اللامبدئي. إنه الغرب الـــذي وضع أساس الخومينية من قبل. وفرنسا هي الدولة التي لجأ إليها الخوميني، وعاش فيها ردحا طويلاً من الـــزمن. وبـــنفوذ فرنسا ومساعداتها تحرك جهاز الإعلام المتخصص حتى أشعل الثورة التي ما تزال قائمة. لقد أحس الغرب أنه إذا لم يصل الخوميني إلى السلطة، و لم تتملك الثورة الدينية زمام الأمور في إيران.. فإن الكراهية الشـــديدة نحـــو الشـــاه سوف تزداد عمقا في الشعب، وينتهي الأمر إلى ثورة شيوعية. فلم يكن حب الغرب للخوميـــنية أو لذلك المفهوم الإسلامي الذي ظهر في إيران.. وإنما الخوف من عدو أقوى هو الذي ألجأهم إلى تغذية الخومينية حتى تنال القوة والسلطان. ولَمّا كان هؤلاء رجال دين، ويعرفون أن قيامهم كان نتيجة للشعور الديـــني، رأوا أنه لكي تبقى جذوة هذا الشعور الديني مشتعلة..لابد من خلق كراهية مكان كراهية، أو تحويل مسارها وجهة أخرى، فسمّوا أمريكا "الشيطان الأعظم". فالثورة الأولى قامت على الكراهية ضد شاه إيران؛

ثم ضـــد أمريكا حليفته القوية. فاستخدموا هذه الكراهية نفسها، وصوروا أمريكا على أنها الشيطان الأعظم. وبكل وسيلة احتفظوا بالحماس الديني حيا في الشعب، لأنه كان متصلا بمشاعر الكراهية وقائما عليها. ونتيجة لذلك تدعمت الخومينية.

فكل تعكير لصفو السلام في المنطقة من قبل، أو الحروب المروعة، أو الاضطرابات وسفك الدماء والمظالم.. تقع مسئوليتها الأساسية على العالم الغربي. أقول الأساسية..لأن عدوان الشاه
كـــان مدعوما من الغرب، فهم المسئولون. إن أمريكا تملك القدرة الهائلة على التجسس والمخابرات وكشف المعـــلومات من أماكن عديدة، بما لا يعرفه أهل تلك الأماكن، وتبلغهم تقارير المخابرات الأمريكية، وتعرِّفهم بكـــل تـــلك الأمور؟ فمن العجيب مثلا أن ثورة قلبت النظام مؤخرًا في بلدنا باكستان، واشتكى الحكام لأن أمريكا لم تبلغهم بالأمر! رئيس الحكومة أزيحَ من موقعه، وتغير الحزب الحاكم، فيشتكون لأن أمريكا لم تخبرهم عـــن ذلك. بلدك الذي تعيش فيه..لا تعلم ما يجري بداخله، وتشتكي لأن الأمريكان لم يبلغوك بما يجري من ورائـــك! هناك نقص في الوعي بات واضحا في بلاد الشرق. وكلما رأينا زيادة في عدم إحساسهم بأنفسهم؛ كلما تزايد إحساس الأعداء وتدخلهم في أمورهم.

أقول: كيف يمكن إذن ألا يكون الأمريكان عالمين بالطغيان الذي أطلق الشاه عنانه في إيران؟ ولا مدركين مدى خطورة ردود الفعل المتنامية في البلاد! فأمريكا هي المسئولة عن كل تلك المظالم لأنها ربّتها ودعّمتها. ولا يمكن لعاقل أن يعفي أمريكا من هذه المسئولية. ليس هذا إحساسا بالكراهية أو مسألة مشاعر.. إنما هي حقيقة لا يجـــد إنسان عادي الذكاء مندوحة عن الاعتراف بأن الملكية التي كانت في إيران تربت تحت رعاية أمريكا. ولذلـــك فـــإن كل التفاعلات التي حدثت بسببها تقع تبعتها الحقيقية على أمريكا. وكل فعل قامت به أمريكا للسيطرة على تلك الأحداث كان لازمًا لحماية مصالحهم، أو بحسب زعمهم، لحماية المصالح العالمية.

لقـــد أحســـوا أن المستفيد من هذا التفاعل قوتان لا غير: إما الخومينية الدينية، وإما الشيوعية. ولما كانت الشيوعية عدوا أشد خطرا، لو وصلت إلى السلطة ما أمكن عقد تلك المعاهدات والاتفاقات التي تمت اليوم بين روســـيا وأمريكا، ولا قامت الصدامية، بل كان هناك خطر شديد على الشرق الأوسط من قِبل روسيا وإيران الشيوعية، ولكان خطرا لا قِبل لهم به.. فبالنظر إلى مصالحهم، أو لأجل سلام العالم كله كما يقولون، خلقوا الخومينية، وغذوها حتى شبت وقويت. ثم استخدم الخومينيون ذكاءهم واتبعوا طريقًا وسطًا لاستمرار نظامهم وحمايته من شرور التأثير الأمريكي. كان طريقًا وسطا بمعنى أنهم ساروا بين أمريكا وروسيا، ولكنه بميزان عدالة الإســـلام لا يعد وسطا، لأنهم اتخذوا من القتل والاغتيال رياضتهم اليومية.. ذات اليسار وذات اليمين، وفعلوا ذلك باسم الإسلام، وهكذا قاسى العالم الإسلامي كثيرا من الشدائد.

انتقام الغرب من إيران

ثم لمـــا أراد الغـــرب الانتقام من إيران الخومينية.. خلقوا الصدامية، وشجعوا العراق بكل السبل، وطلبوا من النظم العربية الخاضعة لنفوذهم مساعدة العراق، كما ساعدوه مباشرة. وفي اليوم الذي واجه العراق فيه خطرًا

شـديدا، وبـدا أن الجيـش الإيراني على وشك ابتلاع بغداد..أعلنت أمريكا صراحة أن هذا لن يحدث؛ أو بالأحرى لن تسمح بذلك أبدا. وسرعان ما زادوا قوة العراق الدفاعية حتى وصلت إلى مستوى هجومي.

واليـوم يروِّجون الدعاية في العالم..من أن صدام طاغية قاسي القلب، لا يتردد في استخدام الغازات السامة ضـد البشرية.. الغازات التي تفتك بالأعصاب وتحدث القروح وتخنق المصابين، وأنه لا بد من تحرير العالم من هذا الطاغية. مع أنهم هم أنفسهم الذين علموه بالأمس صنع هذه الغازات المهلكة. كانوا يعلمون كل شيء عن تلك المعامل الكيماوية، بل أقيمت تحت سمعهم وبصرهم، وهم الذين أعطوه سر الصناعة وتكنولوجيتها.. لأنهم يومـئذ كـانوا يواجهون العدو الأكبر: إيران. ولو ادعت هذه البلاد اليوم أنه لم يكن لديهم علم بذلك، وأن العراق فعل كل ذلك وحده سرا.. لكان قولهم كذبا محضا. فعندما بدأت المعامل الكيماوية في ليبيا صناعة غاز الأعصاب..ضربوا المعامل بالقنابل، وأعلنوا للعالم أنهم لن يسمحوا بأن تقام هذه المعامل مهما كان الثمن، لأنها تمـثل خطرا شديدا على سلام العالم. وقدموا التفاصيل كاملة صحيحة لدرجة مذهلة. قالوا إن ليبيا تزعم أنها معـامل أسمـدة وبعض الكيماويات، ولكن ها هي صور المعامل من الداخل، وهذا ما يصنع بداخلها، وهذه مقاديره. كانوا يعرفون تفاصيل المعامل وكل شبر فيها، وعرضوها أمام أنظار العالم. فكيف كانت عيونهم مغلقة تجـاه العراق، في حين أنهم هم الذين ساعدوه.. عندما أرادوا بكل ثمنٍ غالٍ أن يمنعوا إيران من السيطرة على العراق أو العالم العربي بإحراز نصر حاسم كيلا يخرج الأمر من سلطانهم وسيطرتهم؟

في ذلك الوقت، كانت إيران هي التي تصرخ بأن هناك انتهاكا صارخًا، وظلمًا فاضحًا، وقسوة بالغة ؛ وتنشر الصـور التي تبين ضحايا الغازات السامة. أمَّا وسائل إعلام الغرب فقد توقفت عن نشر هذه المشاهد بعد أن عرضتها مرة أو مرتين.

والآن، لمـا أرادوا أن يفضـحوا ويعـيروا هذا الرجل الذي يصفونه بالجنون والمرض العقلي، والذي خلقوه بـأيديهم.. نشـروا نفس المشاهد الفوتوغرافية التي سبق ونشرتها إيران، وقالوا للعالم: هذا هو الطاغية الذي ارتكب جرائم القسوة ضد إخوانه الإيرانيين المسلمين؛ فكيف يسلم العالم من مظالمه؟.. كيف سيبدي رحمة نحو الآخرين ويعاملهم بالإنسانية؟

فهذا هو نفس التصرف القديم.. ونفس الطريقة القديمة. إنهم لا ينظرون إلى المرض الذي أثمر العقول المريضة. يتجاهلون أنهم أنفسهم القوى التي تساعد دائما على خلق المرض. إنهم يخلقون المرض من بدايته حتى يصل إلى مراحله الأخيرة، وفي النهاية يحولون الانتباه إلى العقول المريضة، لأنهم يريدون فصلها عن أجسادها، متظاهرين للعالم أنهم مضطرون إلى ذلك.. وإلا صارت خطرا على رؤوس العالم.

لمـاذا يظهر هذا العقل المريض؟ إنه بسبب المعاملة الظالمة المستمرة..من جانب الغرب.. مع العالم الإسلامي، وخاصة مع العرب والإيرانيين. إنها معاملة ظالمة، قاسية، جائرة.. على الرغم من أن الغرب فاز بصداقات كثيرة من هذه البلاد، وساندها وعاونها في الظاهر، ولكن أفعاله كشفت بوضوح.. أنه يريد استغلالها، وأفضل طريق لذلك أن يقيم معها علاقات صداقة. إنهم يصادقونهم كي يحصلوا على كل ثرواتهم البترولية ودائع في بنوكهم.

يســتغلونهم مرتين: أولا: تصبح هذه الأموال ثروة تضاعف من قوة رؤوس الأموال العالمية في الغرب، وثانيا: تكون هذه الأموال رهينة في أيديهم يحبسونها عند التهديد بأي خطر.

مفهوم الأمانة عند الغرب

إنهــم يتحدثون عن الأمانة في أماكن أخرى، ولكن يتغير مفهومهم عن الأمانة عندما تكون تحت قبضتهم.. يقولون: عندما يذهب مواطن منهم إلى بلد آخر يكون أمانة لديهم، ويجب ألا

يخونــوا هــذه الأمانة؛ ولكن فيما يتعلق بالثروات التي وضعت لديهم في البنوك في زمن السلم بناء على نظام الحماية التي تمنح للنظام الاقتصادي العالمي، أو وقوعا في خطأ الاعتماد عليهم.. فإنهم يضعون أيديهم على تلك الــثروات، قائلين: نحن نجمدها لصالح العالم. كم من دولة شرقية جمدوا أموالها في حالة الحرب وزمن الخطر! والآن جمّدوا أموال الكويت.. بقصد إعادتها فيما بعد لأنهم أصدقاء، وجمّدوا كل ثروات العراق في جميع البلاد. هــذه هــي أشكال دقيقة من الخداع.. ولكنهم مَهَرة في تقديم الخداع وكل تلك المظالم في لغة مصقولة. إنهم أساتذة هذا الفن.

أكبر غلطة للمسلمين

وفي مقــابل هذا، وفي كل مرة، يحاول العالم العربي التعس محاربة الذكاء بالعاطفة ويدعون عواطفهم ترتطم بالذكاء فإنها تتحطم هباء بدون فائدة، ويقع المسلمون في العار والمذلة أكثر فأكثر.

إن أكبر غلطة وقع فيها العالم العربي، ولا يزال يكررها، أن الأهداف السياسية والأمور الدنيوية التي لا يتغير رد فعل الأمم الأنانية إزائها دونما تفرقة دينية، فإنهم بدلا من الاحتفاظ بها في إطارها الذي تنتمي إليه.. يحولونها إلى قضية دينية. فتتزايد الكراهية التي خلقوها باسم الإسلام.. مع أن المجتمع الإنساني يعطيهم حق مقاتلة الذين هــاجموا مصالحهم، ولكنهم يحولونها بلا مبرر إلى جهاد ديني. فيعطون المهاجمين فرصة إضافية؛ فبعد أن كانوا يهــاجمون العالم الإسلامي فقط.. إذا بهم يهاجمون الإسلام أيضا، ويقولون للدنيا كلها: إن المرض الحقيقي هو الإســلام ذاته وليست إسرائيل وراء هذه المشاكل. إنما الإسلام هو الدين الملتوي ويعلّم الالتواء. إنه دين غير منصف، وينشر الفكر الظالم، وكل هذه الأمراض هي ثمار الفكر الإسلامي.

إن عمــلية إيران مثلا.. كانت عملية غير إسلامية ولا صلة لها بالإسلام. ولو أنهم عرضوا الأمر على العالم، دون خــلطه بالإسلام، وقالوا: إننا كنا من قبل ضعفاء لا حول لنا ولا قوة، ولكن جاء دورنا الآن للانتقام.. لوَافَــق العالم على أن الإيرانيين قد تعرضوا فعلا للعدوان المستمر، ولكان من الممكن أن يتفهم العالم موقفهم. ولكــن الساسة المسلمين لجهلهم المطبق لا يقولون للعالم قولاً سديدًا.. بصراحة ووضوح: إننا لا حول لنا ولا قــوة، وهم قد ولدوا فينا الكراهية الشديدة بصب المظالم علينا قرونًا، وكلما تتاح لنا الفرصة نتصرف كرجل ضــعيف يجد حجرا فيلتقطه ويقذفه، ولا يبالي بما سينــزل به من عقاب، ولا ما سيفعله به الأقوياء. إنهم بدلاً من أن يعرضوا الموضوع على أساس من التقوى، وطبقا لتعاليم الإسلام، وبالقول السديد في وضوح واستقامة.. وبمــا يــنطوي على منافع رائعة، فإنهم مرة أخرى يعطونهم الفرصة لمهاجمة الإسلام. في الأولى دَعَوهم لمهاجمة

ذاهم، ثم اليوم يدعونهم لمهاجمة روحهم.. فيقدمون تعاليم الإسلام في صورة مشوشة مشوهة، بحيث بدأ المثقفون في العالم يعرفون أن أفعالهم لا علاقة لها بالدين، ويقولون: ما دام هؤلاء بأنفسهم ينسبونها للدين فلا بأس.. نهاجم دينهم وننسب إليه الالتواء، ولا ننسبه لعقولهم.

فالقادة الذين وصفهم الغرب أمام العالم بأنهم مرضى - والحق أنهم مرضى، بسبب ما خلقوه من شرور - هم الذين أعطوه الفرصة لينسب المرض إلى الإسلام، وليعرض هذا التشخيص الخاطئ أمام العالم حتى يُرغَم العالم على قبوله.. لأن كلمات المريض مسموعة أكثر. المريض يقول: أنا مصاب بصداع، وتناولت كيت وكيت من الطعام فأصابني الصداع. إذا قال الطبيب غير ذلك فلا يقتنع الناس، ويقولون: إن المريض خير مَن يشخص سبب مرضه. يعرضون هذه الرؤوس المريضة قائلين: هذه الرؤوس بنفسها تعلن: ديني هو المجنون. ديني يأمرني بظلم النساء والأطفال، والقيام بعمليات التخريب، وإفساد أمن المدن بالمتفجرات، والانتقام لمعاناتنا بأي صورة كانت، والله يعيننا، فالإسلام يؤيدنا ويعلّمنا أن نفعل ذلك باسم الدين!

إن هذا خطأ تماما، وليس ثمة تبرير لـه مطلقا. كل ما قلته لكم أمور حيثما عرضتموها على العالم سيضطر إلى قبولها كتبرير لوجود هذه الرؤوس المريضة ويعرف سبب مرضها. ولكن الأسف أن هؤلاء الظالمين لم يسمحوا للعالم أن يهاجمهم وحدهم، بل وعرضوا الدين أمامهم ليكون أيضا هدفا للهجوم.

هذا ملخص طغيان الغرب وظلمهم الذي يعتبرونه اليوم شرعيًا. ومن أهم الأمور الآن أن تتفهم القيادةُ الإسلامية الأسبابَ، وتوجه كل انتباهها إلى المرض الحقيقي، وتنبه الآخرين إليه. عليهم أن يقدموا هذا التحليل أمام العالم بوضوح، ويقولوا: إننا اضطررنا للانضمام إليكم ضد صدام حسين.. ولكن ذلك لا يعني أنكم أبرياء، وأن الخلاص من صدام حسين أو القضاء على العراق هو العلاج للعالم الإسلامي؛ بل سيكون ذلك سببا إضافيا لهدمه، وتستمر الأسباب تفعل فعلها، وتبقى الأمراض التي تسبب اضطراب السلام مرة بعد مرة في منطقة الشرق الأوسط، ويشعر العالم بالأخطار من قِبلهم مرة تلو الأخرى.

وإذا تحدثنا عن العدالة، فسترون أنه بعد كل حرب تحتل إسرائيل جزءا من بلاد المسلمين، ويساندها الغرب ليصبح الاحتلال أبديا. إنهم لم يعيدوا شبرا من الأرض التي احتلوها إلا لمصر. ولم يسلِّم الإسرائيليون سيناء لمصر إلا بعدما اضطروها لركوع أمامهم وقبول شروطهم.

لقد اضطرت في النهاية إلى عقد معاهدة مع إسرائيل، اعتقدوا أنهم يقطعون بها مصر عن العالم الإسلامي نهائيا، وتصبح هدفا لكراهيتهم، ويصبح استمرار وجودها متوقفا علينا، وما دمنا نعضدها فإنها تعيش، وإلا تتحطم وتنهار. هكذا كانت توقعاتهم التي على أساسها أعادوا تلك المنطقة الصحراوية لمصر بعد أن احتلتها إسرائيل. وسوى ذلك لم يعيدوا أي أرض احتلتها إسرائيل للمسلمين الذين لم يقبلوا بمعاهدة تضطرهم للسجود أمامهم.

كم طالت بالأردن مصادقتهم؟ إنهم حتى اليوم يذكرون في نشرات الأخبار.. أن انظروا أصدقاءنا.. كنا نعتمد عليهم أكثر من أي شيء. كم كنا حمقى! لقد ظهر أنهم أصدقاء غير مخلصين. ولكن الغرب لا يرون إلى معاملتهم تجاه الأردن. طوال هذه المدة لا يزال شطر كبير من الأردن تحت احتلال عدوه، ولم يزل هؤلاء

الأصـدقاء يسـاعدون العـدو على الاستمرار في هذا الاحتلال غير الشرعي.. ومع ذلك استمر الأردن على صداقته لهم!

متى تحرم موالاةُ الكفار؟

وحيـث يقول القرآن المجيد بعدم موالاة الأعداء.. خلق بعض المُلاَّت (المشائخ المتعصبون من مدرسة العصور الوسطى) انطباعا خاطئا حول ذلك الأمر، ونتيجة لذلك أعانوا أعداء الإسلام على تشويه سمعته. ألاَ، هذه هي الأوضـاع التي يقول فيها الإسلام لا توالوا أعداءكم! لا توالوهم على حساب متطلبات الإسلام والعدل. هذه هـي حكمة ذلك التعليم القرآني؛ فقد صرح القرآن المجيد بأن الله تعالى لا ينهى عن مصادقة أولئك الذين لا يضمرون العداوة لكم ولا يظلمونكم، بل أحرى بكم أن تعاملوهم بالحسنى. يقول تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتِلوكم في الدين و لم يُخرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهم وتُقسِطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين* إنما يـنهاكم الله عـن الذين قاتلوكم في الدين وأخرَجوكم من دياركم وظاهَروا على إخراجكم أن تَوَلَّوْهم ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون﴾ (سورة الممتحنة: ٩-١٠)

هـذا هو الإسلام، ولكنهم تجاهلوا تعاليم الإسلام الحكيمة، واتبعوا فهمهم الذي ألبسوه رداء الذكاء. فحيث تحرم الموالاة كانوا يوالون، وحيث أُمروا بالصداقة والموالاة وعُلِّموا كيف يوالون تجنبوها!

هذا هو آخر شكل من أشكال مرضهم. إنهم ابتعدوا عن التقوى.. وعن تعاليم الإسلام. قال المصطفىﷺ : لا يُلدغ المؤمن من جحر واحدٍ مرتين.. ولكن ما أكثر ما لُدغوا، ثم يضعون أصابعهم في نفس الجحر، وحتى اليوم لم يفهموا.

أمـا موقف الغرب فكل عاقل متبصر إذا حلله وجد أنه أيضا في الحقيقة موقف جاهل أحمق. فإنه برغم تكبد الخسـائر مرة بعد أخرى لم يستطع تشخيص المرض، و لم يدرك أنه مادام هذا المرض فستستمر الأخطار تحوم حـول العـالم بنفس الطريقة تماما. ومن الناحية الأخرى، فإن البلاد الإسلامية أيضا، بالرغم مما قاسته مرارا وتكرارا.. لم يتعلموا من أخطائهم المتكررة. فما هو العلاج؟

العلاج الوحيد

إنه علاج واحد، علَّمنا إياه سيدُنا محمد المصطفى ﷺ.. وقد ذكرته من قبل، وأود اليوم أن أذكركم به. هناك نبوءات طويلة أريد أن أشير إلى واحدة منها.جاء في الحديث النبوي الشريف: "... أوحى الله إلى عيسى عليه السلام أني قـد أخرجتُ عبادًا لي لا يدانِ لأحد بقتالهم، فحَرِّزْ عبادي إلى الطور (أي اجعله لهم حماية)... فيرغَب نبي الله عيسـى وأصحابه إلى الله تعالى.. (أي يدعون الله ويرغبون إليه في إهلاك يأجوج ومأجوج، وإنجائهم من مكابدة بلائهم وشرهم...). (صحيح مسلم، كتاب الفتن)

يقـول النبي الأكرم ﷺ في حديثه عن الأيام الآخرة إن يأجوج ومأجوج سوف يتسلطون على الأرض، وأنهم ينهضـون موجة بعد موجة، وأن موجات سلطانهم سوف تغطي المعمورة كلها، وأن المسيحَ الموعودَ مجيئُه في الأمـة الإسلامية سيحاول مع أتباعه قتالهم بقصد هزيمتهم. وعندئذ يخبر الله تعالى المسيح الموعود بأنه لا يملك

إنسان على الأرض القوة على قتالهم، بل و لم يُعط المسيح الموعود نفسه هذه القوة أيضا. هناك علاج واحد: إنه اللجوء إلى الطور(الجبل) والابتهال إلى الله تعالى. فالدعاء هو وحده القوة التي تؤدي إلى الفوز على هذه الأمم.

المراد من "الطُّور"

ولكـــن ما المراد بالطور، أي الجبل؟ أعتقد أن النبي الكريم ﷺ هو المراد بالجبل هنا. يقول الله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَه خاشعًا متصدِّعًا من خشيةِ الله﴾؛ أي لو أوحى الله تعالى هذا القرآن إلى جبل لاهتز لعظمته ولتحطم إلى شظايا. إن جبال الدنيا لا تملك القدرة على تحمل جلال هذا الوحي؛ ولكن المصطفى ﷺ كـــان وحـــده أعظم الجبال وأعلاها وأشدها. فالمراد من قوله (فحرِّز عبادي إلى الطور) أن عُودوا إلى عَظَمة المصطفى ﷺ، وتعوذوا بتعاليم المصطفى ﷺ. الجئوا إليها واستمدوا القوة منها. إذا فعلتم ذلك وابتهلتم إلى الله ﷻ.. يكـــون دعاؤكم قد غُذِيَ من عظَمته، فلا يضيع أبدا، وتنالون نصيبا من عظَمته، كما تأخذ دعواتكم قسطا منها.

العبرة الثانية

والعبرة الثانية..أنه لم يَرِد في الأحاديث أن الله تعالى أمر أحدًا من مسلمي ذلك الوقت أن يبتهل ويدعو؛ إنما أمر أتباع المسيح الموعود بالدعاء. ومعنى هذا أن إيمان الآخرين من مسلمي ذلك الوقت بقوة الدعاء يكون قد رُفع من الناحية العملية، ولن يولوا اهتماما بالدعاء. ومن لا قيمة عندهم للدعاء فلا معنى ولا فائدة من إشراكهم في وصفة الدعاء.

بوســـعكم الآن رؤية تصريحات الحكام المسلمين التي تصدر الآن. فمنهم من يقول: هلموا إلى أمريكا، واطلبوا معونـــتها وحمايـــتها. ومنهم من يقيم معاهدة مع إيران أو يتفق معها في أمور لينتفع من قوتها. ولا أحد منهم يقـــترح الاتجـــاه إلى الملاذ الإلهي، ويفكر في ملجأ المصطفى ﷺ. لم يذّكرهم أحد: أيها المسلمون، هذا وقت الدعـــاء والابتهال إلى الله تعالى.. لأنه السبيل الوحيد للنصر على الأعداء. ولكن هناك جماعة وحيدة فريدة.. جماعة الإمام المهدي والمسيح الموعود.. مسيح محمد المصطفى ﷺ..قدّر الله تعالى أن تكون نجاة العالم الإسلامي بفضـــل دعائهم، بشرط أن يلوذوا بملاذ عظَمة محمد المصطفى ﷺ، ويتحصنوا بشخصيته وسنته، ويواظبوا على التضرع والابتهال إلى الله تعالى.

ولو اقترِحَ حل مؤقت لهذه المشكلة.. فليكن من المعلوم أنه سوف يكون الحل الذي يسير بأهل الشرق الأوسط وبالعـــالم كله نحو وضع أسوأ مريع للغاية. لن يكون حلا يزيل البلايا. إذا كان هناك حل فهو معكم أنتم.. يا جماعـــة المسيح المحمدي. عليكم أن تتضرعوا إلى الله تعالى بلا انقطاع، لأن هذه الآلام سوف تستمر إلى زمن طويل، وللموقف تقلبات كثيرة، وسوف يدخل في مراحل متجددة. وإذن فلا تؤخروا الدعاء، فلم يفت الوقت بعد، ونحن القوم الذين دَعَوْا من قبل.

وعلى ضوء الموقف كما حللته أمامكم.. أؤكد لكم أنه لا علاج لأمراض هذه الدنيا، وأمراض الأمة الإسلامية ســـوى الدعاء. وعليكم أيضا أن تبتهلوا من أجل العالم الغربي، كي يمنحهم الله العقل والفطنة. لقد فشلوا من

قبل مرات عديدة في أن يحلوا مشكلات الدنيا بمكرهم وسياستهم. لم ينجح مكرهم وذكاؤهم مرة واحدة، و لم يكـــن لـــه نفع للعالم، بسبب دوافعهم الأنانية وراء مهارتهم، وإفراطهم في الغرور خلف قراراتهم النهائية. إن الذكـــاء الحقيقي هو في التقوى، والدنيا لم تفهم هذا السر بعد. عندما يؤكد القرآن الكريم على التقوى فإنه لا يقصـــد أن نكـــون كالملات المجانين (المشائخ المتعصبين)، وإنما يؤكد على التقوى التي تُورث الفراسة، فتجعل المؤمن يرى بنور الله تبارك وتعالى. إن العقل والتقوى اسمان لمسمى واحد، وكل ذكاء محروم من التقوى سوف يؤول في النهاية حتما إلى الفشل والخسران. سمُّوه إن شئتم مهارة، ولكنه ليس ذكاء. فعالم اليوم.. من الشرق أو من الغرب.. خالٍ من الذكاء والفطنة الحقة.. لأنه محروم من التقوى.

فيا جماعة محمد المصطفىﷺ. . يا جماعة المسيح المحمدي (عليه السلام).. الذين حملتم أمانة التقوى.. أَوْفُوا بحق هذه الأمانـــة. وما دمتم باقين عليها مستحقين لهذه الأمانة.. فلسوف يهبكم الله النصر، وتمضون قادرين على قلب المستحيل ممكنا، ولسوف تظهرونه للعالم. عسى الله تعالى أن يعيننا على تحقيق ذلك! آمين!

٢٤ أغسطس ١٩٩١